الحيض والختان: طقوس العبور[*]

بتقة أمينة

ماجستير علم اجتماع العائلة جامعة وهران2 محمد أحمد

يكتسب كل من الذكر والأنثى هوية جنسية من خلال محيطه الاجتماعي الذي يفصل عالم الذكورة عن عالم الأنوثة لاكتساب معرفة الجسد التي توضح صورة التراتبية بين الجنسين كون الممارسات في الحياة اليومية تعمل على إظهار عمق الاختلاف الموجود بين الذكر والأنثى، في حين أن الاختلاف يعمل على تعزيز للهوية الجندرية وذلك بالرجوع إلى الكيفية التي يتعامل بها الأفراد مع الظواهر الاجتماعية، فما يمس الجسد من تغيرات فيزيولوجيا إلى تغيرات اجتماعية ما هو إلا إدراج للفاعل الاجتماعي في جماعة تعبر على ما يجب أن يكون عليه الفرد "فجل تصرفات الأفراد على المستوى الجنسي – إن لم نقل كلها – يتأثر بمجموعة من المعطيات التي تسير كلها في اتجاه التمييز بين النساء والرجال بشكل تفاضلي ينطلق من تصنيف كل ما هو جنسي في المرأة ضمن ما هو سلبي مدنس وحقير، مع العلم بأن الرجل لا يعيش رغبته الجنسية إلا مع المرأة ومن خلالها."[1]

لكن الحياة الجنسية لا تقتصر على إقامة علاقات جنسية بين الذكر والأنثى، بل تتعدى ذلك إلى البحث عن تنشئة للجنس والتي تتم بشكل عفوي كما أنها لا تحصر في الأعضاء الجنسية فقط، موضحا عبد الصمد الديالمي تجنب الوقوع في ثلاثة مخاطر معرفية فيما يخص التربية الجنسية وهي: "خطر اختزال التربية الجنسية في تعلم تقنيات ممارسة الجنس، خطر الخلط بين التنشئة الاجتماعية والتربية الجنسية، خطر الخلط بين آداب النكاح وعلم " الباه" من جهة وبين التربية الجنسية من جهة أخرى"[2].

إنَ جل التدريبات التي تعلمها الأسرة هي ادوار جنسية نتاج أنها تفصل وتحدد معنى الذكورة عن معنى الأنوثة وتحت هذا الفصل والتحديد تم الاهتمام بظاهرتي الحيض، والختان كطقوس عبور للجنسين رغم أن مرور الذكر والأنثى بهاتين الظاهرتين لا يتم في نفس المرحلة العمرية، إلا أن التعبير عنهما بأنه طقوس عبور راجع إلى كونهما من بين التغيرات الأولى التي تطرأ على الجسد الذكوري والأنثوي، أي هما بمثابة مراحل تزيد من تعزيز وتعميق الذكورة والأنوثة، لكن هذا التعميق يكون بدرجات متفاوتة يكمن التفاوت في سرية وكتمان الحيض عند المرأة، وفيما يقابل المرأة الإعلان عن الختان عند الذكر. ففي الوسط الأسري كيف تعمل ظاهرتي الحيض عند الأنثى، والختان عند الذكر على تشكيل الجنسين وإدخالهم في جماعات انتمائهم التي تحدد هويتهم الجندرية[*]؟

1. البلوغ والتجربة الأنثوية:

"إن علاقة التمييز بين الجنسين في مرحلة البلوغ توضح كيف تتعامل الثقافة مع هذا الحدث الفيزيولوجي فتجعله مثقلا بالرموز معبرا عن الأنظمة والأنساق"[3] .

فمن خلال الجسد أصبح الحيض[**] كمعبر عن البلوغ الأنثوي "يمثل على المستوى الاجتماعي تسجيلا لتحول الأنثى إلى موضوع جنسي، وإعلانا عن بدء دورة خصوبتها، وذلك ما يصطلح عليه اجتماعيا وثقافيا **'بالبلوغ'** فيفرح محيط الفتاة بهذا الدم الذي يعلن أنها **'عادية'**، بمعنى أن نضج جسدها قد تحقق بشكل طبيعي، وأنها قد أصبحت نتيجة ذلك أنثى مؤهلة للزواج، وبفعل هذا التأهل يتحول الجسد الأنثوي إلى **'تابو'** يجب الحفاظ عليه والاحتراس منه، لان من الممكن أن يلوث سمعة العائلة ويمس شرفها فيتحول هذا الدم في ظل هذه التمثلات من معطى بيولوجي إلى رمز يكتسب قداسة دينية واجتماعية" [4] .

فمادام نضج الجسد الأنثوي أمر مقدر بيولوجيا، فلا يعني ذلك فرح أهل الفتاة دائما ببلوغها خاصة وإذا كان بلوغ الفتاة في وقت مبكر، بمعنى آخر يلعب سن الفتاة دور في قبولها اجتماعيا أثناء دخولها مرحلة النضج حيث ما لوحظ من خلال استطلاعنا للميدان بلوغ بنت عمرها 13 سنة، حيث لم تتقبل الأم ذلك، رغم أنها تعلم بأن البلوغ أمر بيولوجي فعدم تقبل الأم بلوغ ابنتها ليس لأنها لا تريد نضجها، بل ترى بأن ابنتها غير مؤهلة للدخول في هذه المرحلة بحكم سنها. يعني أنها تخاف عليها لأنها تجهل معنى البلوغ ولا تزال صغيرة في ستر عورتها. ولان الفرح ببلوغ البنت مربوط بسن الفتاة، فإن بلوغها في مرحلة مبكرة من العمر قد يوجّه من ورائه إلى الفتاة مجموعة من التوبيخات كقول الأم: **'بلاك كشما درتي في روحك'** وكأنها هي التي تتحكم في بلوغها المقدر بيولوجيا عليها والمفروض اجتماعيا على

أهلها، والقول بأنه مفروض اجتماعيا نتاج أن الأهل لا يتقبلون دخول ابنتهم في هذه المرحلة بسهولة في بداية الأمر خوفا عليها لأنها تصبح أنثى قادرة على الإنجاب.

لكن هذا لا يعني دائما عدم فرح أهل الفتاة ببلوغ ابنتهم لأن هناك أمهات تحكي مع بناتها، وتوجههم، وتنصحهم أثناء بلوغهم وحتى أنها تضحك، وتبتسم معهم في الحضور الأولي للحيض لدى إحدى بناتها، ما يمكن تفسير الابتسامة في وجه بناتها بأنه أيضا تعبير عن الخوف على شرف الفتاة التي بلغت، لأنه لو لا الخوف لما جلست الأم مع ابنتها وحدثتها كيف تتعامل مع جسدها أثناء نضجها. فاللابتسامة معنيين الأول الفرح ببلوغ البنت لأنها أصبحت أنثى مكتملة قادرة على الزواج، والإنجاب، وثانيا الخوف من بلوغ البنت لان هذا الاكتمال لأنوثتها قد ينعكس بالسلب على شرف الفتاة وشرف أسرتها لو لم تحافظ الفتاة على جسدها.

1.1: الأنثى والحضور الأولي للحيض:

يعتبر الحضور الأولي للحيض تفسير لفهم معاني الجسد المتعددة فقد يعبر الحضور الأولي على "تغير نظرت الأنثى إلى جسدها ويشعرها أيضا بتغير نظرة الآخرين لها وتبدل معاملتهم لها، وخصوصا حين يفتضح أمرها. وإلى جانب الشعور بالاضطرابات النفسية والإحساس بالآلام و غيرها من الحالات التي قد تصاحب الحيض، تتفطن الفتاة إلى أن عليها ضبط سلوكها وأن تراقب حركات جسدها حتى لا يشي بالحالة الحائض"[5].

لكن تفطن الفتاة لضبط سلوكها ومراقبتها لحركات جسدها قد يكون مربوط بسنها في نظر بعض الأفراد، كما اشرنا في العنصر السابق إلى أن بلوغ الفتاة في وقت مبكر أمر غير مقبول اجتماعيا نوعا ما ويتخوف منه أهل البنت نظرا لعدم وعيها بجسدها بحكم سنها حيث أشار مارسال موس Marcel Mauss إلى تصنيف تقنيات الجسد حسب زوايا مختلفة النظر متمثلة في (الجنس، والسن، والمردودية، وأشكال انتقال هذه التقنيات).

"فبالنسبة للسن أشار إلى التقنيات الخاصة بفن التوليد وبحركات الولادة وتقنيات الطفولة والمراهقة وسن البلوغ. وأيضا إلى تقنيات النوم والراحة والنشاط البدني (مشي، جري، رقص، قفز، سباحة، تسلق، نزول) وكل الحركات المتطلبة للجهد، تقنيات نظافة الجسد وتقنيات الاستهلاك (الأكل والشرب)، وتقنيات التوالد، حيث أضاف كذلك الجنسانية إلى تقنيات الجسد، مذكرا بتغير أوضاع الممارسة الجنسية وتقنيات التدليك"[6].

ما يعني أن لتقنيات الجسد علاقة بعمر الشخص، لان لكل مرحلة عمرية تقنيات تميزها، كعلاقة الفتاة بجسدها أثناء الحضور الأولي للحيض الذي يتميز بمجموعة من التقنيات حصرناها في (الحشمة، والدهشة) تعيد تشكيل الفتاة تبعا للمرحلة التي أصبحت تعبر عن هويتها الجنسية.

فالعلاقة بين ما أشار إليه مارسال موس فيما يخص تصنيف تقنيات الجسد حسب السن، وما توصلنا إليه من خلال الدراسة يعكس خصوصية كل فئة عمرية وعلاقتها بمجموعة من تقنيات الجسد التي يتفنن الأفراد في صناعتها، كتوجيه، وإرشاد الجسد الأنثوي أثناء البلوغ على كيفية تعامل الأنثى مع جسدها. لكن رغم توجيه الأنثى إلا ويبقى تعامل الفتاة مع جسدها أثناء الحضور الأولي للحيض علاقة خاصة يمكن توضيحها من خلال بعض تقنيات الجسد المسجلة أثناء فترة التحقيق وهي:

1.1.1: الحشمة: إن الإعلان عن الختان عند الذكر، والتكتم عن الحيض عند الأنثى يعكس صورة للتباين الجنوسي تتضح معالم هذا التباين في الممارسة اليومية للجنسين، فكيف ذلك؟

إن الإشارة إلى الختان ليس المقصود من ورائه البلوغ، ولكن لتوضيح صورة التباين الجنوسي بين الذكر والأنثى. ولان "البالغ قد يشعر بالحياء الشديد إذا دخل عليه احد فجأة وهو يغير ملابسه، كما يخجل من شكل جسمه، ويتخيل أن الناس ينظرون إليه وهو يسير في الشارع وحينما يجلس مع الكبار يحار في طريقة جلسته وفي وضع يديه، وهذه الأمور لم تكن تثير فيه مشاعر القلق في الطفولة"[7]. فقد تربط هذه الاستعمالات للجسد في نظر الكثيرين بالأنثى أكثر من ارتباطها بالذكر، وكأن الذكر تحكمه قوانين الطبيعة فقط لا ضوابط المجتمع.

وفي موضع آخر يقول "فرانس فانون: 'الفتاة تخجل من جسدها بنهديها، بتشوهات تكوينها، فهي تخجل من أن تكون امرأة بنهديها. وترفض لا شعوريا أو طوعا التحولات المرفولوجية والفيزيولوجية التي هي مفاجئة عبر هذه الثوابت المغايرة. والجسد في الحركة أو الرياضة هو

بعيد عن قدرة جمع الموافقات للسماح للفتاة بممارسة بعض النشاطات، فالرياضة و الرقص يتجسدان كإثارة لكل ما هو إدراك لجسد يقلد باختصار أبعاد جنسية"[8].

يعكس كلام فرانس فانون بان البحث في الهوية الجنسية الأنثوية بمثابة 'تابو' لا يمكن الحديث عنه انطلاقا من أن الفتاة تخجل بجسدها، هذا الخجل وصفه 'بتشوهات تكوينها'، فالخجل بهذه التشوهات ما هو إلا حفاظ على أنوثة الفتاة حسب الحس الجمعي، كما أن إشارة الأفراد إلى الحشمة، والحياء يستحضر الأنثى دون الذكر، ما يعني أن من بين التقنيات الجسدية التي لابد على الفتاة أن تتسم بها في مرحلة بلوغها وهي الحشمة وتربط الحشمة بمرحلة البلوغ لان الأنثى هنا قادرة على الإنجاب، رغم أن الحشمة ليست صفة أنثوية فقط، بل قد تكون من صفات الذكور أيضا.

بالرغم من أن الحشمة توضح صورة التباين الجنوسي، إلا انه لا يمكن ربطها بجنس دون آخر، وإنما يكمن الاختلاف في قوة تواجدها لدى الأنثى أكثر من الذكر، وكأنها خاصية أنثوية خاصة وأننا لاحظنا من خلال ظاهرتي الحيض والختان الإعلان والفرح بالذكر عند الختان، وسرية وتكتم الأنثى على الحضور الأولي للحيض. وفإذا كانت الحشمة كتقنية جسدية لابد من تعليمها للأولاد وهم صغار يعني أن الوالدين يدربون ويحضرون الجسد الذكوري والأنثوي لمرحلة البلوغ هذه المرحلة التي تتضح فيها معالم الأنوثة والذكورة بقوة من خلال التحولات البيولوجيا التي تلحق بالجسد الاجتماعي.

فالحشمة تقنية يتصف بها الجسد الذكوري والأنثوي رغم انه في تصورات العديد من الأفراد يربطونها بالأنثى أكثر لهذا "طوقت النساء بمجموعة من التمثلات التي جعلت من 'الحشمة' أو 'الحياء' خاصيتين أنثويتين ايجابيتين فكلما كانت المرأة خجولة وذات حشمة كانت مفضلة بالنسبة للمجتمع، والعكس هو أن تكون المرأة 'مسنطحة' وليست محتشمة أكثر من نكران الذات، ونكران المرأة لذاتها يتحقق عن طريق السكوت الذي لا يمثل تعبيرا عن رفض أو قبول بقدر ما يجسد الطاعة والخضوع. ومن هنا يكون الصمت بالنسبة إلى المرأة مثلا جميلا تحافظ به على استدامة مختلف العلاقات"[9].

2.1.1: الدهشة: لقد تم ملاحظة بلوغ إحدى الفتيات وكيفية تعاملها مع جسدها في الحضور الأولي للحيض، حيث أول ما لوحظ على الفتاة وهو دهشتها من رؤيتها لدم الحيض، فيعتبر البلوغ **'معرفة فجائية بالجسد الأنثوي'**. بالإضافة إلى عدم تقبل الفتاة نزول هذا الدم عليها، لدرجة أنها في يوم بلوغها ومن خلال توجيه أختها لها في كيفية التعامل مع الحيض، صرحت الفتاة البالغة، بأنها لا تضع شيئا لمنع خروج دم الحيض من خلال قولها: **'ما ندير والوا نخليها بلاك ضروك تروح'** ما يعكس عدم تقبل الفتاة لواقع بلوغها. ومن جهة أخرى تدهش الفتاة لرؤيتها دم الحيض خوفا على شرفها لأنه يمثل شرف العائلة.

2.1: انفصال الأنثى عن عالم الطفولة:

اعتبرنا البلوغ **'معرفة فجائية بالجسد الأنثوي'** لما يغير من تعامل الأنثى مع جسدها فجأة في الحضور الأولي للحيض حيث تنتقل " الصبية من طور براءة الطفولة إلى طور الأنوثة، فيتحول جسدها الصغير إلى جسد أنثوي ذي تعرجات تفيد الإغراء وتغذي الرغبة وتشد انتباه الرجال وتوقظ فيهم الرغبات وتشعرهم بالعجز، وفي هذه المرحلة تنغلق الفتاة على ذاتها مترفعة على أشكال اللعب التي كانت تشارك فيها مع أصدقائها من الأطفال الذكور"[10].

قد تتجنب الأنثى أثناء بلوغها معاملة الذكور، كما تتغير بعض تقنيات الجسد الأنثوي في هذه المرحلة كتغير اللباس وانفصالها عن الفضاء الخارجي. حيث يمكن تفسير هذه التغيرات التي تطرأ على الجسد الأنثوي أثناء بلوغه من خلال:

1.2.1: التقسيم بين الجنسين: نقصد من ورائه تجنب الفتاة معاملة الذكور بصفة عامة وفي هذه المرحلة تبدأ الفتاة تعي وظائف جسدها حيث تحاول وضع قطيعة بينها وبين الجنس الآخر. ووعيها بجسدها الذي أصبح قادر على الإنجاب يكون من خلال محيطها (صديقاتها، أهلها، بنات الجيران...الخ) فيُفرض عليها نوعا من الضبط الاجتماعي الذي يتمثل في انفصالها عن عالم الذكور مما يزيد من قوة علاقتها ببنات جنسها، فبلوغ الفتاة رغم تكتمها عليه ولا يعرف به احد سوى القريبات منها، إلا وتراه الفتاة و كأنه ظاهرا على جسدها، وملاحظ من قبل الآخرين.

صحيح من قال بأن دخول الولد في عالم الذكورة بواسطة الختان يكون بألم، لكن كذلك لا يجب أن ننسى دخول البنت عالم البلوغ بقوة، لأنه ليس بالسهل أن يعيد فرد تشكيل نفسه فجأة، وليس بالسهل أيضا أن نعيد تشكيل تقنيات جسدية حسب الفئة العمرية التي ينتمي إليها كلا الجنسين.

2.2.1: الحيض ورمزية اللباس: "ما يرمز إليه الجسد الأنثوي، هو علامة على الخصوبة، وهو المكلف بالإنجاب والمحقق للمتعة، ولذلك حجب ما يشكل لديه أهم رأس مال بشري و رمزي"[11]. يعني أن للبلوغ علاقة بالمظهر الخارجي للأنثى، لان مظهرها وتحديدا لباسها بمثابة رأس مال تكمن رمزيته في كيفية إعادة تشكيل الأنثى لأنوثتها حسب الضوابط التي يقرها المجتمع، فيمكن أن يكون اللباس من بين الرموز التي تضعها الفتاة على جسدها حتى تغير من هيئتها التي كانت عليها في طفولتها، كما بإمكان الحجاب في نظر البعض تعبير على بلوغ الفتاة كونه من بين أولى الممارسات الجسدية للأنثى أثناء دخولها مرحلة البلوغ.

وقد يكون الاعتراف باكتمال أنوثة البنت من خلال بعض العبارات التي تقال للفتاة من قبل بنات جنسها: **'كبرتي وليتي مرا'** حيث لا تتقبل الفتاة هذا الوضع الذي هي عليه الآن بسهولة فقد ترفض فكرة الحجاب، وتجنب معاملة الذكور،...الخ. والإشارة إلى اللباس يعكس في بعض المواطن علاقة ترابطية بين جسد بيولوجي دخل مرحلة النضج، وجسد اجتماعي محكوم بما هو متعارف عليه من قبل المجتمع. فيتجسد هذا الاعتراف بوجود ترابط آخر بين اللباس و البلوغ يتمثل في ستر بعض أجزاء الجسد التي بإمكانها أن تغري الجنس الآخر، كون أن هذا الجسد الأنثوي قد اكتمل نضجه وأصبح جسد قادر على الإخصاب، والغواية بعدما كان جسد غير ملفت للانتباه في الطفولة.

3.2.1: التقسيم الجنسي للفضاء: يشير تقسيم الفضاء إلى إبعاد الأنثى عن الشارع ومحاولة تدريبها منذ بلوغها على أن البيت هو فضاء مخصص من اجلها، في وقت يبقى فيه الشارع خطر عليها بسبب اكتمال أنوثتها. وعلمنا بأن " الجسد يكون على اتصال دائم بالعالم وقطعة غير منفصلة عنه"[12]. كونه بناء اجتماعي وثقافي فيبقى دور الأسرة كمؤسسة من مؤسسات التنشئة الاجتماعية هو إبعاد الأنثى عن الفضاء الخارجي لأنه بمثابة فضاء مخصص للذكور أكثر من الإناث، فقد ترفض الأم مثلا خروج ابنتها البالغة للعب أمام البيت. حيث يمكن تفسير ذلك بتخوف الأم دائما على أنوثة بناتها خاصة إذا كانت الفتاة بالغة، فقد تكون تحت المراقبة أكثر من الطفلة غير البالغة، لان جسدها هو ما يفرض استحضار بعض الممارسات كالخوف عليها و مراقبتها.

فمن خلال عنصري الحيض ورمزية اللباس، والتقسيم بين الجنسين يمكن إسقاطهم على ما جاء به مارسال موس من اقتراح لتصنيف تقنيات الجسد والمتمثلة في: "**حسب الجنس:** يرى التعريفات الاجتماعية للرجل والمرآة تستدعي بالمناسبة حركات مسننة بطريقة مغايرة. و**حسب أشكال انتقال هذه التقنيات:** يتساءل بأية طرق و بأي إيقاع يتم تلقين هذه التقنيات للأجيال؟ "[13].

إن بلوغ الأنثى فرض عليها تعريفا لجسدها الاجتماعي الذي يقصي الذكر ويبعدها عن عالم الطفولة ويقوي علاقتها بعالم النساء بنات جنسها، هذا كله إدراك ووعي لمعنى أنوثتها (وعيها بجنسها). كما أن البلوغ ظاهرة بيولوجيا، لكن يصبح تقنية جسدية مادام الأنثى تضع بعض العلامات على جسدها حتى تميزه عن جسد الطفولة تتمثل هذه العلامة في تغير لباسها الذي بإمكانه إعادة تعريف جسد الأنثى حسب وضعيتها التي أعطاها لها واقعها الاجتماعي، هذا الواقع الصامت الذي يعبر عن تشكيل الأجساد من خلال اللباس وما يحمله من مدلولات اجتماعية.

2. طقس الختان عبور إلى عالم الذكور:

الختان لا يعني بلوغ الذكر أثناء هذه المرحلة من العمر عكس الفتاة التي يرتبط بلوغها بأول حضور للحيض، فالتعبير عن الحيض والختان كطقوس عبور لكلا الجنسين بمثابة مراحل انتقالية للذكر والأنثى، مما تزيد هاتين الظاهرتين من تعميق الأنوثة والذكورة.

"فإذا كان الختان يمثل مرحلة من حياة الطفل فلا يعزى ذلك، بالتأكيد انه يدخله في المستوى الواقعي إلى عالم الرجولة المكتملة ذلك أن هذا لن يتحقق إلا عند البلوغ ... فالختان بمثابة 'نظام للجسد' هدفه جعل الفرد يتقمص المبادئ المثالية للجماعة التي ينتمي إليها على نحو معلن"[14].

حيث يتم الإعلان عن الختان(*) بفرح وسرور لممارسة هذه الظاهرة الاجتماعية التي تزيد من تعميق ذكورة الولد عكس الأنثى التي يتم التكتم على دخولها مرحلة البلوغ، وكأنه عار بالنسبة لها رغم أن بلوغ الأنثى أيضا يزيد من أنوثتها ما يوضح صورة التباين بين الجنسين حسب تمثلات واقع اجتماعي معين يعطي أولوية الذكر على الأنثى والتي تتمثل في الإعلان عن الطقوس التي تعمق الذكورة، والتكتم عن الطقوس التي تعمق الأنوثة.

ومادام الختان تعميق لذكورة الولد وإدخاله في عالم الرجولة التي يكملها الزواج في نظر الحس الجمعي، فان "إدراكنا لختان الذكر يجعل منه رجلا مضطلعا بدوره في الجماع. وهذا يعني أن طقس الختان إعلاء من شأن الذكر، واحتفاء به تجسد في شكل عيد جماعي، وظيفته التخفيف من وطأة التوتر وقسوة الألم... وليس تعجيل الأهل بإجراء طقس الختان إلا علامة على مدى رغبتهم في إدراج المولود في المسار الذكوري في مرحلة مبكرة حتى يكون حاملا لعلامة تشعره بقيمة امتلاكه للقضيب وتميزه على البنت، أي بفحولته. فالختان اختبار يجرى على الغلام بهدف معرفة مدى قدرته على تحمل الألم وهو شرط انضمامه إلى عالم الرجال واكتساب السلطة. فلا غرو أن تتمسك الجماعة بطقس الختان مادام ينهض بوظيفة أساسية في بناء الذكورة"[15].

فقد تمثل العلامة التي يتم رسمها على الجسد الذكوري أثناء ختانه كممارسة اجتماعية، إدخاله إلى عالم الرجولة الذي يكون بألم لدرجة أن هذه العلامة تبقى على جسده طوال حياته، ما يعني شدة، وقوة ألم الدخول إلى عالم الرجولة. بالإضافة إلى عدم تقبل بكاء الذكر يوم ختانه، لان البكاء في نظر الأفراد يصبح كتقنية جسدية خاصة بالأنثى منذ يوم الختان، فتم التركيز في تحليل هذا العنصر على بكاء الذكر لما يعبر عنه من نظام جندري يربط الأنثى بالبكاء والذكر بالصبر والقوة.

بكاء الذكر: "إن التنشئة الاجتماعية للذكر شحنته بالتمثلات وأخضعت بكاءه بقواعد اجتماعية ثقافية. فليس بإمكان الرجل أن يبكي متى يشاء وكيفما كان ولأي سبب"[16]. فبكاء الرجل مربوط بحسب الموقف الذي يعيشه، إلا انه يختلف عن بكاء الأنثى كون الذكر يتميز بالصبر، والقوة، والشدة فلا يجب أن يكون أمام الناس وبصوت مرتفع لان حسب تصورات أفراد المجتمع هذا تقليل من ذكورته، فيمكن أن نقول عن بكاء الذكر بأنه أمر غير مقبول اجتماعيا رغم عدم وعي الطفل لمعنى هذا الفعل الممارس على جسده ورغم ألمه، فالختان بداية الإعلان عن الذكورة التي لا تتصف ببكاء الرجل والوالد يحاول تعليم ولده معنى الذكورة بكل ما تحمله من الآلام وتعليمه كيف يكون نسخة من أبيه حتى يتم الاعتراف به في جماعة التي ينتمي إليها وحتى لا يتصف بصفات أنثوية، كاستعمال بعض تقنيات الجسد الخاصة بالنساء، أي فصله عن عالم الإناث.

"ولما كانت مظاهر الاختلاف بين الجنسين متنزلة في سياق اجتماعي ثقافي خاص سمته المحافظة على التراتبية الهرمية بين أفراده فقد ارتبطت طريقة التعبير عن العواطف والأحاسيس والانفعالات بالمنزلة الاجتماعية التي احتلها كل من الرجل والمرأة في النظام الاجتماعي، كما أنها بدت وثيقة الصلة بالدور الجندري الموكول إلى كل منهما"[17].

1.2: الختان تحضير للرجولة المكتملة:

"يدرب الذكر منذ طفولته من جماعة الرجال التابع لها كجماعة مرجعية، على التميز عن عالم النساء بتحضيره للأعمال التي تتطلب منه جهدا بدنيا كرمز للقوة والسلطة معا والتي ينبغي من خلالها، أن يبرهن على رجولته تحضيرا لفحولته والذي هو مطالب بإثباتها، بحمل زوجته في اقرب وقت ممكن بعد الزواج"[18].

حيث يتم التدرب على جماعة الرجال التي ينتمي إليها الذكر انطلاقا من بعض الطقوس الممارسة من بينها طقس الختان عند الذكر، لان إعلان الختان إعلان عن إدراج الذكر في الجماعة التي ينتمي إليها وليس إعلان عن بلوغ الذكر، وفي هذه المرحلة الذكر غير قادر على الإنجاب وإنما هو في تحضير للرجولة المكتملة، فيبقى البلوغ عند الذكر كذلك أمر غير مصرح به حتى وإن ظهر على جسده، كخشونة الصوت، وظهور اللحية...الخ. مثله مثل الأنثى التي يتم التكتم على بلوغها، فإذا كان هناك اختلاف بين الجنسين، إلا وتبقى هناك نقاط اتفاق بينهما يمكن حصرها في البلوغ الذي هو بمثابة 'تابو' لا يمكن الكلام عنه في نظر الأفراد. وما يربط بين الختان والبلوغ هو أن "الختان وعد وضمانة بحياة تناسلية بأمل المرء أن تكون ممتلئة ورائعة ودائمة"[19].

كما يبقى الاحتفال بختان الذكر من خلال الملاحظة له نمطين من التفسير أولا: دلالته الرمزية وما يعبر عنه الختان من معاني، وثانيا: الإعلان عن ختان الذكر حتى يتم فصله بطريقة تلقائية عن الأم وعالم النساء.

1.1.2: رمزية الختان: إن المدلولات التي يتضمنها الختان كممارسة قد يكون لها رمز ديني مادام "الانتماء الذكوري بالمغرب الكبير، لا يتطابق مطلقا، مع استمرار حضور القلفة ويعود هذا بدرجة اقل إلى أسباب دينية"[20]. فتفسير الأفراد لظاهرة الختان بمدلولات دينية حتى لا يتم النقاش فيه، ولأنه حسب التصور الديني الذكر لا تقبل ذبيحته، وصلاته، وحجه حتى يختن، ما يجعلنا نرى بأن للختان رمزية دينية بالإضافة إلى رمزيته الاجتماعية، أي الختان كواقعة تدرج الذكر في جماعة الرجال التي ينتمي إليها.

"تسمح ببروز الرمز وتستدعي بكيفية ما، بعد الغيرية على اعتبار أن موضوع العملية يبقى مفتوحا على عالم تواصلي يتجاوز الفرد. هنالك إن صح هذا التعبير 'الأنا في الجماعة' من خلال فعل التضحية. وبما أن الأمر يتعلق قبل كل شيء بعلاقات يخفيها الواقع، وبقوة خصوصا عندما نكون إزاء الجماعة تعرف الشاذة والفاذة عن كل شيء، فان بإمكان الختان أن يصبح، ضمن هذا المنظور بالذات، واقعة مفهومة ودالة على المستوى الاجتماعي لن نتردد إذن في القول بأن الأمر يتعلق فعلا بترميز اجتماعي[21]".

2.1.2: الانفصال عن عالم النساء: "إن معيش الطفل المغاربي مطبوع بنظام متأخر يأتي الختان بعده مباشرة ليدشن مرحلة جديدة تتميز بالاضطراب. ذلك أن الأم تتخلى فيها عن الطفل ليلج طورا جديدا في مسار هويته"[22].

حيث تظهر معالم هذا الطور الجديد من يوم ختان الذكر الذي يتم فيه اصطحاب الذكر مع أبناء جنسه إلى الطبيب، وليس اصطحاب الأنثى حتى وإن كانت الأم هذا غالبا، فالانتقال إلى جماعة الانتماء بالنسبة للذكر قد تبرز صورتها من خلال ممارسة طقس الختان كتهيئة للجسد الفحولي.

يعني تشكيل الذكورة قد ينطلق من الممارسة الطقوسية على الجسد، لان الجسد تعبير عن ثقافة وتعبير عن نموذج اجتماعي مجسد في شكل تمثلات اجتماعية.

كما أن فصل النساء أثناء ممارسة الختان على الذكر وتركهم يرونه فيما بعد برهنة على انتقال الذكر إلى مرحلة تزيد من تعميق ذكورته يتضح التعميق في فصل النساء عن الذكر أثناء ختانه وإدراجه بشكل مباشر في عالم الرجال. من هنا "يبرز التفرد والتمايز عن الأم من خلال العمليات النفسانية المرافقة للجنسين في إنبناء الذكورة لدى الصبي الصغير... فبداهة تعارض الأنوثة والذكورة وضرورة التنافر بين الأنوثة والذكورة شرطا ملازما لتشكل هوية جندرية سوية... والابتعاد عن الأنوثة شرطا ملازما لتحقيق الهوية الجندرية لدى الذكور ولا تتحقق أنوثة الإناث إلا بنفي ذكورتهن"[23].

2.2: الاعتراف بذكورة الولد:

في تعبيرات الثقافة الشعبية يقول الناس: **'طهر وبرا وخصتوا غير المرا'** على الذكر بعد ختانه، يعني هذا المثل الشعبي لدى العديد من الأشخاص بأن طقوس العبور للذكر هي الختان، والزواج. لكن في ميدان علم الاجتماع يمكن أن يعكس هذا المثل شيء آخر يتمثل كما قلنا سابقا التكتم على بلوغ الذكر، في حين التصريح بالختان والزواج لأنهما ظاهرتين لابد من الإعلان عنهما حتى يدرج الذكر في الجماعة التي ينتمي إليها، وإبعاده عن عالم النساء. فالبلوغ عند كلا الجنسين يبقى بمثابة **'معرفة فجائية بالجسد'** يتكتم عليها الأفراد ولا يصرحوا بها وهذا لما يعبر عنه البلوغ من قدرة على الإنجاب.

لكن يتجاهل العديد من البشر بأن مرحلة البلوغ هي المرحلة التي تربط بين الختان والزواج، أي أنها تتوسط الممارستين هي المرحلة التي تعبر عن النضج الجسدي للذكر، لكن كيف يتم الاعتراف بذكورة الولد وإدخاله في عالم الرجولة المكتملة؟

الذكر وجماعة الانتماء: يتم الاعتراف بذكورة الولد كليا وإدخاله في عالم الرجولة المكتملة أثناء زواجه، لان الزواج بمثابة مرحلة تجعل الذكر نسخة من أبيه كما أن العلاقة بين الختان والزواج تتمثل في الجانب الرمزي الديني حيث لا يتم زواج الذكر إلا إذا كان قد مر بطقس الختان حسب بعض المجتمعات، ولان والرجولة المكتملة تعبر عن القوة والسلطة، فلا يجب إدراج الذكر في عالم الرجولة المكتملة لو لم يمر بطقس الختان الذي يكون ألم على الجسد الذكوري، أي الاعتراف بذكورة الولد يكون بألم منذ البداية حتى يعرف الذكر شروط ذكورته التي تتطلب منه أن يكون قويا، وصبورا...الخ.

وكما أن للأنثى عذرية هي المسئولة عنها يوم زفافها، كذلك للذكر عذرية لكن تختلف 'عذرية الذكر' عن عذرية الأنثى في أن الذكر لا يتم زواجه دون ختانه، فالختان ليس طقس عبور فقط وإنما أيضا عذرية للذكر، هذه العذرية هي التي تفتح له المجال لينتقل إلى طقس الزواج، وإما إقصائه كليا من جماعة الانتماء للذكور.

"فالختان والزواج محددان بوصفهما الخطوتين الأولى والأخيرة، في عملية واحدة هي الحياة والختان هو الطريق المفتوح إلى الزواج، انه الوعد بشباب دائم، بمعنى انه سيوفر على الرجل خيبات الشيخوخة"[(24)].

في الأخير يمكن اعتبار ظاهرتي الحيض والختان على أنهما 'معرفة فجائية' بالتغيرات التي تطرأ على الجسد الاجتماعي. مع العلم أن الحضور الأولي للحيض يتحدد بتغيرات فيزيولوجية تحدث على مستوى الجسد الأنثوي، وفيما بعد يقوم المجتمع بإدراج الجنس الأنثوي في قيم ومعايير جماعة الانتماء التي تعبر عن الهوية الجنسية الأنثوية بدأً من التقسيم بين الجنسين في اللعب، والفضاءات الاجتماعية، وحتى من خلال الرمزية الاجتماعية للباس...الخ.

أما الختان فرغم انه طقس عبور للذكر يتحدد بتغيرات لها طابع اجتماعي بالدرجة الأولى، إلا ويبقى كذلك الختان 'معرفة فجائية' بالنسبة للذكر كونه يحضره للدخول في عالم الرجولة الذي يكون بشروط أهمها الانفصال عن عالم النساء، وتجاوزه لكل الممارسات اليومية التي يربطها الحس الجمعي بكل ما هو أنثوي.

الهوامش:

***طقوس العبور les rites de passage**: ظهرت هذه العبارة لأول مرة على لسان فان جنيب. فكل إنسان يمر حسب نظرته بمراحل عدة خلال حياته و تتواكب هذه التحولات بطقوس مختلفة طبقا لكل مجتمع. (...) تمثل جميع هذه الطقوس من الناحية الشكلية بنية ثلاثية تضم المرحلة الانفصالية حيث يخرج الفرد من حالته السابقة، والمرحلة الكامنة حيث يكون الفرد بين حالتين و مرحلة الاندماج حيث يكتسب الفرد وضعه الجديد و تختلف هذه المراحل الثلاثة حسب أنواع الانتقال من حالة لأخرى، فردية أو جماعية، كما تعيد تحديد الأوضاع و الأدوار. (...) من خلال الختان يتم لمرة واحدة فقط إشباع الرغبة الكامنة لدى الإنسان بأن يكون أيضا من الجنس الآخر، وذلك ما يسمح بالعبور إلى الجنس الحقيقي من خلال تأدية الطقس. **حسب**: بيار بونت، ميشال أيزار وآخرون، (2011)، **معجم الاثنولوجيا و الانثروبولوجيا**، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ' مجد '، ص 634، 635

1. خلود السباعي، (2011)، **الجسد الأنثوي و هوية الجندر**، بيروت، جداول للنشر و التوزيع، ص 164، 165.

2. عبد الصمد الديالمي، (2009)، **سوسيولوجيا الجنسانية العربية**، بيروت، دار الطليعة للطباعة و النشر، ص 149.

*إن الجندر عامل من العوامل المنتجة للامساواة، و يسمح لنا تفكيك بنيته بإدراك أن الاختلاف لا يرتبط بالفروق البيولوجيا و إنما هو نتاج ممارسات ثقافية و اجتماعية وسياسية. جاءت الدراسات الجندرية تلبية لحاجة موجودة بالفعل في الأوساط العلمية الانجلوسكسونية منذ أواخر الستينات، و قد شهدت تطورا كبيرا سنة 1970 أدى إلى ظهور تخصصات عديدة، منها انثروبولوجيا الجندر، و سوسيولوجيا الجندر، وتاريخ الجندر. و يمكن القول أن دراسة الجندر التي تعني البحث في واقع الرجال و النساء معا. مثلت مطلبا رئيسيا من بين مطالب الباحثات النسويات **حسب**: أمال قرامي، (2007)، **الاختلاف في الثقافة العربية الإسلامية دراسة جندرية**، بيروت، دار المدار الإسلامي، ص 14.

3. أمال قرامي، مرجع سابق، ص 334.

** يمثل الحيض من الناحية البيولوجيا نضج الجسد الأنثوي و تمكنه من القيام بوظائفه الأنثوية الإنجابية، كما يمثل على المستوى الاجتماعي تسجيلا لتحول الأنثى إلى موضوع جنسي، و إعلانا عن بدأ دورة خصوبتها، و ذلك ما يصطلح عليه اجتماعيا و ثقافيا ' بالبلوغ '. **حسب**: خلود السباعي، مرجع سابق، ص 131

4. خلود السباعي، مرجع نفسه، ص 131.

5. أمال قرامي، مرجع سابق، ص 331.

6. دافيد لو بروتون، (2014)، **سوسيولوجيا الجسد**، القاهرة، روافد للنشر والتوزيع، ص 79، 80 .

7. شحاتة محروس طه، **أبناؤنا في مرحلة البلوغ و ما بعدها**، إنتاج وحدة ثقافة الطفل بشركة سفير، ص 17 .

8. مباركة بلحسن، (2004)، **المرأة و الجسد مقاربة انثروبولوجيا في الوسط التندوفي**، رسالة ماجستير، جامعة وهران، ص 32.

9. خلود السباعي، مرجع سبق ذكره، ص 261،.

10. خلود السباعي، مرجع سابق، ص 131.

11. أمال قرامي، مرجع سبق ذكره، ص 373.

12. دافيد لو بروتون، (1997)، **انثروبولوجيا الجسد و الحداثة**، بيروت، مجد/ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر و التوزيع، ص 83.

13. دافيد لو بروتون، **سوسيولوجيا الجسد**، مرجع سبق ذكره، ص 79، 80.

14. مالك شبل، (2010)، **الجنس و الحريم السلوكات الجنسية المهمشة في المغرب الكبير**، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق المغرب، ص 170، 175 .

*قام علماء الأعراق البشرية و علماء الاجتماع بمقارنة المجتمع اليهودي بالمجتمعات القديمة الأخرى، الأمر الذي عزز نظرياتهم التي يلخصها مارسال موس بالقول أن الختان من وجهة نظره يرجع في أصله إلى الوشم، أي انه علامة قبلية و ربما قومية. **حسب**: عبد الوهاب بوحديبة، (2001)، **الإسلام و الجنس**، القاهرة، رياض الريس للكتب و النشر، ص 254

15. أمال قرامي، مرجع سبق ذكره، ص 85، 86 .

16. أمال قرامي، مرجع سابق، ص 548 .

17. مرجع نفسه، ص 552 .

18. دليلة شارب مطاير، (2010)، **الفضاء المنزلي والعمل الأساتذة الجامعيون والعلاقات الجنوسية**، رسالة دكتوراه، جامعة وهران، ص 50 .

19. مي غصوب، ايما سكلير ويب، (2002)، **الرجولة المتخيلة الهوية الذكرية والثقافة في الشرق الأوسط الحديث**، بيروت، دار الساقي، ص 36 .

20. مالك شبل، مرجع سبق ذكره، ص 177.

21. مالك شبل، مرجع سابق، ص 179 .

22. مرجع نفسه، ص 170.

23. عزة شرارة بيضون، (2007)، **الرجولة وتغير أحوال النساء (دراسة ميدانية)**، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ص 36.

24. مي غصوب، ايما سكلير ويب، مرجع سبق ذكره، ص36.